مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد8 العدد 2 / ديسمبر2022
ص ص 22– 40

إيمانويل لفيناس :اكتشاف الوجود ضد هوسرل وهيدغر

Emmanuel Levinas : The Discovery of Being against Husserl and Heidegger

هشام بن لوصيف[1]*،خديجة هني[2]

[1]جامعة الجزائر 2: hichem.benloucif@univ-alger2.dz

[2] جامعة الجزائر 2: sarahenni2@yahoo.fr

الاستلام: 2022/09/22 القبول: 2022/11/25 النشر: 2022/12/31

ملخص:

نسعى من خلال هذا المقال الموسوم بـ:"إيمانويل لفيناس :اكتشاف الوجود ضد هوسرل وهيدغر" الوقوف على أهم الانتقادات التي وجهها إيمانويل لفيناس إلى ممثلي الجيل الأول للفينومينولوجيا إدموند هوسرل ومارتن هيدغر ،ليبدأ رحلة نقد الفلسفة الغربية والإرث الأنطولوجي الذي تأسس على مركزية العقل والحرية ،هذه المركزية التي غالبا ما رفضت الغيرية .وعلى الرغم من أن الفلسفة اللفيناسية تعود جذورها التي كونتها إلى فينومينولوجيا الجيل الأول ،إلا أن لفيناس سيفتح آفاق الابتعاد عن هوسرل وهيدغر ، خاصة بإضافة المسؤولية تجاه الآخر و استضافته من خلال فينومينولوجيا الوجه – في جواز التعبير – التي ستغدو أكثر أصالة من الوعي القصدي عند هوسرل، في حين سيعتبر سؤال العلاقة مع الغير أكثر جذرية من سؤال الوجود عند هيدغر ، ليمنح لفيناس الأفضلية للإتيقا على حساب الأنطولوجيا ، وعليه تصير الإتيقا فلسفة أولى؛ و ليست مجرد فرع من فروع الفلسفة، إنما هي الفلسفة الأولى.

الكلمات المفتاحية :النقد ؛ الظاهراتية ؛ القصدية ؛ الميتافيزيقا.

Abstract:

This article aims to highlight fundamental Levinasian criticisms, essentially against Husserl and Heidegger, and therefore against any form of logocentrism in the Western philosophical tradition. This clearly explains the continual effort in Levinas to found a new conception of the relationship to the other, based mainly on the ontological primacy of responsibility towards the other, which is explicitly based on a phenomenology of the face, thus going beyond on the one hand, the intentional consciousness of Husserl, and on the other hand the question of being in Heidegger. And so on, Levinas claims to substitute ethics for ontology in order to arrive at the fundamental idea of ethics as primary philosophy.

Keywords: criticism ; phenomenology ; intentionality; metaphysics

*المؤلف المراسل

1.مقدمة:

أدى تطور العلوم المادية والدقيقة وما قدمته من نتائج بارزة بفضل مناهجها في العصر المعاصر إلى خلق أزمة على مستوى العلوم الإنسانية ،التي سعى المشتغلون فيها إلى بلوغ مثل ما تم إنجازه في العلوم المادية ،وهذا عبر محاولتهم الالتزام بمناهج الدراسة الموضوعية انطلاقا من نقل وتطبيق النموذج العلمي على الإنساني حيث جعلت الإنسان خاضعا للمنهج التجريبي ؛وبالتالي بدأت هذه المحاولات في العلوم الإنسانية تدريجيا التخلي عن وظيفتها التي تأسست من أجلها وهي العناية بالإنسان.

في ضوء هذه التطورات والتحولات التي شهدتها العلوم ،ظهرت الفلسفة الفينومينولوجية (بزعامة إدموند هوسرل) ،حيث سيحمل ظهورها سمتين هامتين :الأولى كنذير لخطورة الموقف الذي آلت إليه العلوم الإنسانية ،حيث بدأ يفقد هذا الإنسان إنسانيته ليصير مجرد مادة للدراسة التجريبية ،لذلك تأسست دعوى الفينومينولوجيا منذ بداياتها في الحرص على الجانب الحي من الإنسان ومحاولة تخليصه من أزمة إخضاعه للتجريب وقواعد الاستقراء وأهدافه .أما السمة الثانية التي سجلها ظهور الفينومينولوجيا فهي تحمل بشرى ،لأنه فيها رد الاعتبار إلى ما تم إقصاؤه وما تم فقدانه في دوامة النموذج العلمي من أسئلة تمس الإنسان وتحيط بتجربة معيشه .هذه الأسئلة التي تدور حول أولويات المعنى ،الحرية والمعيش ستكون مبرر وجود الفينومينولوجيا لأجل انتشال الذات الإنسانية من التجريب والتقنية .

هذه الآفاق والتفاؤلات داخل هذه الفلسفة الفينومينولوجية ستنتقل من التجربة الألمانية عند كل من هوسرل وهيدغر إلى فرنسا بفضل الفيلسوف ليتواني الأصل ،إيمانويل لفيناس ،الذي بدوره سيحاول عبر فينومينولوجيا الوجه –إيتيقا الغيرية ،المحافظة على معاني الإنسانية والغاية التي تكشفها التجربة الفينومينولوجية في حقل الإيتيقا ،لذلك نجده قد استثمر المساعي الهوسرلية في تخليص الإنسان من أزمة المعنى والغاية التي فقدت في الدراسات العلمية ،ليفتح لفيناس بها بعدا إيتيقيا لتحرير هذا الإنسان من أنانيته التي تطبق وتغلق على الإنسانية في سجن الذات ،هذا التغيير في الفينومينولوجيا ومستويات تطبيقها يمنح الإنسان فرص جديدة لأجل الانفتاح على الحياة وعلى الغير .إن ما تسعى إليه فينومينولوجيا لفيناس هو البحث في معاني التواصل ،الاقتراب والضيافة ،هذه المعاني التي جعلت منه ينتصب قائما/ناقدا ضد كل فلسفة تختزل الآخر في الأنا أو تخضعه لمنطق الشبيه ومقولات الكلية ،ولعل أقرب الفلسفات التي ثار ضدها لفيناس هي ترانساندنتالية هوسرل وأنطولوجية هيدغر ؛بالرغم من أن فلسفته تعود منابعها إليهما كونهما الجيل الأول للفينومينولوجيا ،هذا ما يضعنا أمام مفارقة فلسفية /تاريخية والتي تتحدد كحوار فكري يرعاه النقد والذي منه يأتي تساؤلنا :

كيف استطاع إيمانويل لفيناس نقد فينومينولوجيا الحدس عند هوسرل ؟وكيف تمكن من قلب أنطولوجيا هيدغر ليمنح الأولوية للإيتيقا على حساب الأنطولوجيا ؟أو بعبارة أخرى كيف قام لفيناس باكتشاف الوجود ضد هوسرل وهيدغر ؟

2. اكتشاف الوجود ضد قصدية هوسرل

1.2. لفيناس ضد الفينومينولوجيا ،قصدية بالمقلوب:

لقد ظهرت الفينومينولوجيا كحركة جذرية داخل الفلسفة المعاصرة في فكر **إدموند هوسرل**(1859 -1938) لإحساس هذا الأخير الحاجة إلى إقامة **الفلسفة علما محكما** ،له موضوعاته المحددة و منهجه الخاص ؛و لعل هذه الحاجة إنما هي استدراك لمساعي سابقة لم تكتمل لكل من **كانط** (1724-1804)و **ديكارت** بمحاولتهما في جعل الفلسفة علما ،من هنا أخذ هوسرل على عاتقه تأسيس و صياغة فلسفة من خلال **"تأملات ديكارتية"** جديدة يتجاوز فيها أزمة الذات و الموضوع و كذلك من خلال موقف نقدي لعلوم العصر بمناهجها ،أسسها و أنساقها المعرفية تحت عنوان "**أزمة العلوم الأوربية و الفينومينولوجيا المتعالية**" خاصة بعد أخذ هذه العلوم بتطبيق المنهج التجريبي الذي طال حتى علوم الإنسان ،و في هذا رأى هوسرل أن المنهج الواحد الذي يصحح إخفاقات الفلاسفة السابقين و تخبطهم في تضارب النتائج التي يصلون إليها تارة ،و عدم تمايز الموضوعات في فلسفتهم تارة أخرى.

و على هذا وضع منهجا يدعو فيه إلى التخلص من الاعتقادات والفروض المسبقة ،بهذا يضمن البحث و نتائجه موضوعيتهما ،و بالتالي فإن الفلسفة كعلم ستعنى بالبدايات الصحيحة التي ستبحث بها ما هو ضروري و يقيني يضع الركائز الثابتة التي يمكن أن تقوم عليها المعرفة أو أية صياغات لها في شكل مفاهيم أو فروض أو نظريات في كافة العلوم الفلسفية منها أو الطبيعية أو الإنسانية ،كما أن هذه الفلسفة ستغدو بمثابة معيار لفحص منهجي لها .

من هنا بدأت الفينومينولوجيا صياغة منهج أساسه العودة إلى الأشياء نفسها أو الظواهر وهذا سر تسميتها بالظاهراتية (الظواهرية) **«إن الظاهراتية فلسفة تعيد وضع الماهيات في الوجود ولا تعتقد أننا نستطيع فهم الإنسان والعالم بمعزل عنها ،فهي فلسفة تصاعدية متعالية (ترانسندنتالية) ،ترى أن العالم مائل هناك قبل التفكير لحضور لا يتنازل عنه (...) فالفينومينولوجيا هي العلم الذي يدرس الماهيات التي توجد في العالم»**,Husserl) (1993.

بهذا سيهتم هوسرل بتوضيح المعاني يصف تشكلاتها و تكوينيتها من منطلق البحث عن حقيقة الماهيات أو الصور ،وعلى اعتبار من أنها دراسة للكشف عن الصور ،فهي دراسة للمعطى الذي يبدو للوعي أو الشيء ذاته .والوعي هنا ليس موضوعا يقبل الملاحظة ؛لذلك تكون الفينومينولوجيا حقيقة ذاتية تستلزم ضربا من التحليل القصدي (Analyse Intentionnel). **«فهي إذا دراسة ذلك الذي يبدو للوعي ،ذلك المعطى ،والكشف عن هذا المعطى أو "الشيء ذاته" الذي نفكر فيه أو نتحدث عن** » (زيعور، 1980).

«الفينومينولوجيا تجمع الفلاسفة» بهذه العبارة يستهل **لفيناس** نصه "تأمل حول التقنية الفينومينولوجية" لكن هذا لا يعبر عن انتساب وقبول لكل مبادئ الفينومينولوجيا ، فالفلاسفة الفينومينولوجيون اجتمعوا على **«أسلوب فينومينولوجي** »(lyotard, 1982) على حد تعبير ليوتارد. هذا الأسلوب الذي سمح لفلاسفة

مختلفين كـ (**هوسرل** ، **هيدغر** و **لفيناس**) بالاجتماع من غير أن يوحي ذلك بتقارب أو توافق حقيقي لأفكارهم ، فهؤلاء الفلاسفة بوصفهم فينومينولوجيين شيدوا بالتبادل،أنا متعالية ، أنطولوجيا أساسية و أخلاق غيرية ، في مقابل القول بأن الفينومينولوجيا أجازت التعقيد للتحليل المعرفي ،للكينونة و للآخر ، غير أن الفينومينولوجيا لا تنحصر في أنها مسعى "أسلوبي" فقط و لكنها أيضا منهج ، فالخاصية المنهجية للفينومينولوجيا مقدمة في شكل فعل يتمحور حول الفكر الفلسفي و في موقف صريح قائم على الشرح (التوضيح) أو التأكد من مضامين هذا الفكر ، فلقد كتب هوسرل في "فكرة الفينومينولوجيا" قائلا : **«الفينومينولوجيا : هذا يعني علما ، مجمع أنظمة علمية ، غير أن الفينومينولوجيا تعني في الوقت نفسه وقبل كل شيء منهج وموقف فلسفي : الموقف فكري خاص والمنهج فلسفي بامتياز**» (هوسرل، 2007).

إن فلسفة هوسرل تعلمنا بأن الموقف الفلسفي الذي منه تساؤله لا يمكن أن يهدأ (يطمئن) إلى مسلمات طبيعية أو إلى التي تعود به إلى الموقف الطبيعي ، لأن بالموقف الطبيعي نفهم وضع الذات إزاء العالم ، فهذه الوضعية لا تتضمن نقدا للمعرفة ، انطلاقا من "كيف" نقترب من معرفة الكائنات و الأشياء، فهنا "الفكر الطبيعي لا يهتم بالتساؤلات التي تعنى بإمكانية المعرفة كما هو الحال مثلا في العلوم الوضعية بمنهج التحقق (الاختبار). بالمقابل ، فعن طريق الموقف الفلسفي علينا أن نتموضع في شكل نقدي مواجه للعالم ،إذ أن للموقف النقدي طريقته الخاصة فليس المقصود هنا ،المنهج الذي يحقق في فرضيات معطاة مسبقا كمنهج للاختبار بل كمنهج اختزالي .

هي أيضا الفينومينولوجيا التي تقود هذه المهمة النقدية في سبيل وضع مفهوم الاختزال الفينومينولوجي. و على هذا نجد أن هوسرل يناقض موقف الفكر الطبيعي.

لقد كان لفيناس في البداية مؤرخا للفلسفة حيث قام بتحليل العديد من الفلسفات ،وهذا ما تبين في نشره للعديد من المقالات والكتيبات خاصة ما تعلق بفلسفة هوسرل و هيدغر ؛إذ نراه أحد الفينومينولوجيين الذين حافظوا على علاقة واسعة مع الفينومينولوجيا خاصة بعد نشره لأطروحة دكتوراه تحت عنوان : **"نظرية الحدس في فينومينولوجيا هوسرل"** عام 1930 حيث تأسس (أولا) شارحا ومعلقا على أفكار هوسرل (ثانيا) في فرنسا . إضافة إلى هذا نجد كتابه **"لنكتشف الوجود مع هوسرل وهيدغر"** . وأيضا الترجمة الأولى لـ " **التأملات الديكارتية لهوسرل** " . لكن الأعمال الفينومينولوجية لـ لفيناس لا تنحصر كليا في هذه النصوص ، خاصة إذا أردنا إعادة تأسيس نوع إبداعي فينومينولوجي حيث أننا سنجد أن العشرات من النصوص قد سخرت لأسئلة الفينومينولوجيا. أما عن بداية نشره لفكره الخاص فيمكن اعتبار كتابه **"من الوجود إلى الموجود "** أول هذه الكتابات .

إن ايمانويل لفيناس ينقد الميزة الأساسية للقصدية في فينومينولوجية هوسرل ؛فالقصدية في الوعي الفينومينولوجي هي بداهة لا غنى عنها ، والمقصود هو بيان أن القصدية هي المبدأ الذي يفسر كل بنية (إنشاء) ظواهر

الـوعي والتي لـم تكـن أبـدا قـد أنشـأت لأنـه في المعنى الـدقيق لكلمـة **"المبـدأ"** يعني البدايـة أو المنطلق . فإذا كانت البداية قد أنشأت من قبل فإنها لن تكون البداية ، سيكون شيء ضمني فيها قد أنشأها.

لنأخذ مثال أن تكون القصدية هي المبدأ ، فمعـيش الحساسـية منـذ الآن قـد أنشـا بفعـل قصـدي للحساسـية هـذا الفعـل و المنشـأ مـن الحساســية- بــتحفظ- لــم ينشــأ. حقيقــة أن هوسـرل يعترف ويقبـل وجـود طبقـة معاشـة لا تتضمنها أي قصدية والتي يطلق عليها "مادة بلا شكل، وشكل بلا مادة" إنطلاقا من هذه الطبقة اللاقصـــدية الخالصـــة ســـيتعدل المعـــيش القصدي.

إذا كانـت الحركـة القصـدية للـوعي قـادرة دائمـا أن تكـون حيـة نشـطة وأن تعطـي لهـذه الطبقـة المعنى (الحساسية). هنا تبقى الصـورة الأساسية للقصدية مقبولة . وإلا سنحصـل على "واقـع" معيشـي غير مقصـود مـن الحساسـية في الوعي.

لكن هوسرل لم ينه الجواب على السـؤال وأبقاه مفتوحا". وفي هذا يعلق لفيناس أنه يبدو وفي جميـع الأحـوال سـنرى انفصـال الهيـولى و القصـدية. وحـول وجـود الـوعي بـلا عـالم ،يـرى لفيناس أنه إذا كان العالم لا يوجـد ، فـالوعي لا يملك أي قصدية ، لأن موضوع الوعي القصدي في حاجة إلى مماثل لـه بالتحديد في العـالم، لأن الـوعي بـلا عـالم هـو وعـي بـلا قصـدية هـذه الفرضـية يسـميها لفينـاس "التهـديم الممكـن للعـالم" .فهوسـرل إن اختزل عـالم الأشـياء إلى العدم فلا يتغير شيء بهذا في الوجود المطلق لـ: كل المعايش.

في الحقيقـة ، وجـود الـوعي بـلا قصـدية أو بعبـارة أخـرى وعي بـلا أشـياء هـو قـول ينـاقض التعريـف الأساسـي للـوعي : **«كل وعي هـو وعي بشيء ما»**.

إن لفينـاس في تعليقاتـه يأخـذ في توسـعه الاعتــراض الممكــن حــول "الأنـــا المحـــض" (الخالص) لهوسرل لأنـه سيكون وحدة مستندة على نفسـها بـلا قصـدية، ويعـرف هـذا الـوعي الخـالص بالقصـدية نفسـها على حـد تعبيره فـالوعي قصـدية قبـل كل شيء. ففي **" التـأملات الديكارتيـة"** يسـمي هوسـرل هـذا الأنـا المحـض" الأنـا المتعالي **"Ego transcendental"** فبالنسـبة لـ لفينـاس « **فهـو يحـدد الطبيعـة الفرديـة لهـذه القصدية كـ "طريقة الأنا يماثل فعله»** (moati, 2011).

إن الـــذات المتعاليـــة الهوســـرلية هـــي الطريقة التي تقرر ذاتها بنفسها ،لهذا نقول عنها أنها نوع من ردة فعل للوعي. فبالنسبة للفيناس بعد أطروحته،حول الذات المتعالية بما هي رد فعـل أو تأسـيس ذاتي (آلي) يعتبرهـا منظمـة لـم تكمل أطروحتها ليس من طرف الفينومينولوجيا وحـدها بـل حتى في الفلسـفة الحديثـة كلهـا، ولتتمـة مشـوار الفينومينولوجيا لابد من اختيار الأسئلة التي لم يجب عنها هوسرل. بداية، لا بد من معرفة إذا كان يمكن وجود واقع أو "معيش" أيـن تكـون المعطيـات (الهيولانيـة) غريبـة عـن الـوعي القصـدي مـن ثـم يتقـرر معرفـة إمكانيـة وجود "وعي بلا عالم" كمعيش (واقع) محسـوس يقبل المنهج الفينومينولوجي. فإذا كان الجواب قول بالإمكانية فإننا إذا سنعتبر أيضا هذا الوعي بــ "أنــه لنــا"؛ لــذا فقــد ألــح لفينــاس علــى الموضوعية في الوجود.

إن هوسرل يتحدد كرجل علم حقيقي أو راديكالي ولعل معالم الراديكالية رسمها هو بنفسه في المحاضرة التاسعة والعشرين من كتابه "فلسفة أولى" هذه الراديكالية حددها في خطاب وثوقي أشبه بالوصية التي توافق فيها الإرث وتاريخية الأنوية. فالفلسفة حسبه ما هي إلا بداية جديدة لعلم حقيقي لا يستسلم لما هو كائن ويناشد ما يجب أن يكون، هذا العلم الذي لا بد أن يلتفت إلى قراءة مقدماته ومعطياته قراءة نقدية، راديكالية. لكن هذه الراديكالية هي التي ستوقع لا محالة هوسرل ومنهجه الفينومينولوجي القائم على الآيبوخي "الإختزال" في مآزق الإنسداد، وهذا ما توضحه أزمة "بين الذوات" أو "البيذاتية" مما تحمله من خطر على "معيش" قد يتنوع في عوالمه.معيش يخالط الواقع، فهذا العلم "الفلسفة كعلم" هي مطلقة وراديكالية شكلها هوسرل في بيانه لمهمة الفيلسوف الذي يتوحد فيه هذا الأداء (المهمة، المهنة) أو الإشتغال الفلسفي بالهدف (الفلسفة) العلم الراديكالي.

فالفيلسوف بهذا الإلتزام لا يمكن أن يخرج عن الهدف، وكل ابتعاد عن الهدف هو ابتعاد عن ذاته، بل الأحرى – القول – بخيانة ذاته. وفي هذا تعبير عن اختيار للمهنة بحرية التي يعمل فيها الفيلسوف على المطلق والمحض، إن ما ينجر عن هذه المهنة الخالصة هو عودة إلى الذات لا العالم.

إن هذا القرار، قرار البداية الجديدة (الراديكالي) قرار الاختزال الترانسندنتالي أو الإيبوخي فيه إسعاد للذات بذاتها. بما توحيه هذه السعادة من استكفاء ذاتي والذي بموجبه يكون هوسرل قد غفل عن حقيقة بديهية رافقت تاريخ الفلسفة كونها تفكير في المدنية لا في رفض العالم، إن هذه الراديكالية هي راديكالية إرادة الأنا ضد العالم أو حتى ضد الآخر ضد الواقع وضد الغيرية، وهذا ما عبر عنه لفيناس بالوعي المجتث.وعلى هذا **«فإن هوسرل لم يطرح المشكلة الميتافيزيقية في موقف الإنسان الفيلسوف** »(levinas, 1989) .

إن الفينومينولوجيا المتعالية والتي خطى فيها هوسرل خطوة جديدة في القول بالتأسيسية المتعالية التي قسمها إلى تأسيسية الموضوع بمختلف قيمه الأنطولوجية بما هو متعلق بالوعي أو كما يسميه "معنى نوامي" وتأسيسية الوعي بما هو سيال زمني مطلق الوجود والحقيقة، وهذا حسب لفيناس إشارة إلى التأسيسية الذاتية أو الوعيية، وكأنه بهذا يريد ألا يبحث في تأسيس الوعي وإنما في تأسيس الموضوع في الوعي الذي هو نفسه الذي يقتضي أن يكون الوعي مؤسسا. فالوعي حتى وإن كان مادة محضة فهي مادة تخالطها الصورة فهناك تأسيسته للوعي التي تتميز عن تأسيسية الموضوع، وهذا معناه أن المعيش يبدو معنى أعم من القصدية، أي أن كل قصدية فهي معيش، وهذا لا يلزم العكس (وليس العكس صحيح) بأن كل معيش فهو قصدية. إذن فالمعيش قد ينفصل عن القصدية وهذا يلزم بالقول أن هناك معاييش غير قصدية.

لقد عمد إدموند هوسرل إلى اختراع منهج غير مسبوق أطلق عليه إسم الإرجاع او الإختزال كما أعطى الأولوية لمنهج غير مألوف في مجال البحث الفلسفي والوصف ، هاتان الصفتان الأساسيتان توضحان المنهج الفينومينولوجي الذي يؤسس لسيكولوجية عامة، وفي هذا يقول

هوسرل في أحد دروسه خلال عشرينيات القرن الماضي: « **لسنا هنا من أجل الشروع في تأملات فلسفية حول الماهية الداخلية للروح أو من أجل تصور أسسا لأبنية ميتافيزيقية، وإنما نحن هنا من أجل تأسيس سيكولوجيا مفهومة كعلم تجريبي**». بهذه العبارة سيحاول لفيناس إخراج المنهج الفينومينولوجي من صياغته النظرية التي اكتفى بها هوسرل إلى إدخاله حيز التطبيق، من هنا كانت إحدى المهام الشاقة المطروحة على عاتق لفيناس بإبراز البعد التطبيقي لفينومينولوجيا أخلاقية للغيرية.

إن هوسرل يثير مسألة الغير في فلسفته في شكل إدراك للغير والذي يتم بشكل متواز ، وهذا عبر سلسلة تجارب متغيرة ومنسجمة كذوات ، من جهة ، و من جهة أخرى كموضوعات للعالم لا بوصفها أشياء من العالم- رغم أن تلك هي حقيقتها- غير أن كل ذات (الغير) ما دامت موضوعا سيكولوجيا فإنها ترتبط بجسدها و تدركه ، و لهذا فهي توجد في العالم ، فالذات تدرك هذا الغير ضمن العالم وهذا الغير بدوره يدرك هذه الذات في هذا العالم نفسه ، وهو في الوقت نفسه يدرك العالم الذي تدركه الذات ، وبالتالي فالغير سيتوفر على تجربة الذات كما تتوفر هذه الذات على تجربة الغير وبهذا تتوحد في تجربة العالم ، إن تجربة الذوات الأخرى ليست كنشاط خالص بل كعالم غريب بالنسبة للذات وبالنسبة لكل الذوات الأخرى (الغير) إن هوسرل يؤكد على أن عالم التجربة موجود لذاته خلافا لكل الذوات التي تدركه وبالتالي ففعل الوجود خاص بكل ذات.

معنى هذا أن الوعي قبل أن يكون وعيا بالذات هو وعي بشيء ما ، وما يميز هذا الوعي هو قصديته التي تفيد أن كل وعي هو وعي بشيء ما وأنه وعي قصدي، يقصد الأشياء ويتوجه إلى أشياء خارجية عنه، فالتذكر هو تذكر شيء ما والإحساس كذلك هو إحساس بشيء ما، بهذا فالوعي ليس وعيا مجردا مغلقا كجزيرة معزولة -على حسب تأمل ديكارت- بل هو وعي منفتح على العالم ،بهذا فإن إدراك الغير عند هوسرل هو إدراك قصدي كما تتحول فيه وحدة الأنا إلى بين ذاتية غير أن لفيناس يفهم هذا الفعل بأنه عنف ،ذلك أن الكوجيطو وفق هذه النظرة المثالية يظل ذاتية مكتفية، تنظر إلى الآخر كشيء أو تكونه كهو (مجهول غائب) ،صحيح أن الذات تحتاج إلى الآخرين من أجل تكوين العالم موضوعيا، وأن الموضوعية هي ما تتشارك فيه الذوات لكنها ذوات يجمع بينها موضوع واحد بحيث أنها تتمثل المواضيع بطريقة واحدة فالبيذاتية تشترط هذه الواحدية لأن الأنا المكونة لا يمكنها أن تفهم فهم الآخر للموضوع إلا بالطريقة نفسها التي تفهم هي به هذا الموضوع ،لهذا ف لفيناس يرى أنها بيذاتية لكنها ذاتية لأن فعل التكوين بهذا المعنى هو عنف وعلى هذا يطرح لفيناس التواصل كضد لهذا التكوين ذلك لأن التواصل هو شرط الموضوعية هذا التواصل الذي لا يتحقق داخل منطقة التكوين الذاتي بل يفككه ويفجره من الداخل لأن التواصل يشترط الإنفصال بين الأنا والآخر هذا الآخر كوجه و لا نهائي منفلت من كل معنى ،لذلك ف «**العلاقة مع الآخر كمتعالي و لا متناهي لا تنبني كمعرفة قصدية ؛إذ أن هذه**

الأخيرة تخفي التمثل في ثناياها وتعيد الآخر إلى الحضور و الحضور-معا » (لفيناس، 2014).

إن فلسفة الأقواس والاختزال الذي تمارسه على العالم هو خروج عن العالم إذ يضع المعرفة كما الوجود كما الآخر بين قوسين، إذ يتم إلغاء وجود هذا العالم بغية الإمساك بجوهره- نفقد العالم لنعثر عليه من جديد. لكن هذه المرة لا نعثر عليه "معيشا" بل كوعي فقط، والوعي في الفينومينولوجيا ليس نتاجا للطبيعة، بل هو حر من كل طبيعة بحيث لا يمكن لها (الطبيعة) أن توجد في حال غيابه وهذا ما صرح به هوسرل نفسه قائلا: « **إذا محونا كل العقول عن العالم، لا يبقى هناك وجود للطبيعة، ولكن إذا محونا الطبيعة فإن شيئا ما يظل على قيد الحياة، العقل كعقل فردي**»

من هنا يبدأ لفيناس دعوته إلى اكتشاف علاقة أخرى مع الموجود لا تنظر إلى الآخر كشيء أو تكونه كـ"هو" ، فالآخر ليس نتيجة تأمل ترانسندنتالي أو تمثل أو حتى تكوين كما أورده هوسرل في التأمل الخامس من "التأملات الديكارتية" فالآخر ليس موضوعا لمعرفة موضوعية ، يرتبط فيها الآخر بالأنا. الأنا المفكرة (المتأملة) على طريقة ديكارت و هوسرل. إن هذا الإرتباط سليل التحديد الذي مفاده (ذات / موضوع) وهذا التحديد يناقض المطلب الأخلاقي المطلق الذي يناشد الخروج من الكلية في علاقة تتأسس على الميتافيزيقا التي هي لا نهائية أو علاقة الوجه، وجه يكون الوعي أو يمنحه المعنى، هذه العلاقة هي شرط إمكان للوعي وتحققه.

لطالما تم اعتبار الوعي كلحظة مؤسسة في الفينومينولوجيا، هذا كون الفينومينولوجيا فلسفة للحرية، وتحقيق لذاتية حرة، هذه الحرية تتحقق في وعي سابق في وجوده على العالم، بل لا يتحدد العالم إلا به ومنه.

وكنتيجة لقراءة لفيناس للإختزال الفينومينولوجي، تأسست نظرته المثالية إلى الفينومينولوجيا، إذ اعتبر هذا الإختزال نوع من الحفاظ على الوعي خارج العالم إذ هو ليس بلحظة في العالم بل (لحظة مؤسسة بامتياز).

وعلى هذا تم نقد الوعي باعتباره وعيا لا ينخرط في الواقع وغريب عن التاريخ وهذا يتضح في قوله في كتابه: " لنكتشف الوجود مع هوسرل وهيدغر" : « **الأساس الأخير للفكر يظهر عند هوسرل غريب عن التاريخ، أنه حميمية معنى بالنسبة إلى الفكر وليس حدثا يعمر الفكر أو يفترضه الفكر**»(levinas, 1967) . وبهذا النقد للوعي الذي هو أيضا نقد لغربة التمثل عن العالم يدافع لفيناس عن فكرة الحياة من أجل... بدل وعي بشيء ما ، لأن الوعي يحيا من العالم ويتنفس داخله فهو مرهون بالذوات الأخرى ، وموضوع الوعي الذي هو أصلا شرط تحقق الوعي وكل تمثل ينكر هذا فهو لا تمثل ،بحيث لا يؤخذ في الاعتبار تاريخية الوعي ، فنقد الوعي هنا هو نقد للقصدية المكبوتة التي لا تستضيف الآخر بل ولا تنفتح عليه ،بل تعمل على تحويله إلى موضوع للمعرفة إنها نوع من المطابقة بين الذات والموضوع :لهذا فـ لفيناس يدافع عن قصدية مغايرة تتحقق خارج فعل التمثل وترتد جذورها إلى الواقع و لا تنحبس في نظام الأنا إنها قصدية جسد وليست وعيا لهذا يقول لفيناس إن الوجه في معنى في

ذاته الآخر أساس الأخلاق : بالنسبة لـ إيمانويل لفيناس ، اللقاء مع الآخر لا ينكشف مع النظام الأنطولوجي ، لكنه يدخل إلى النظام الأخلاقي.

لقد جرت العادة أن تتناول فلسفات الوعي الآخر من منظور الهوية : هذا لأن الآخر في بادئ الأمر مماثل لـ "ذاته" قبل أن يكون آخر كذات ثانية أخرى ، لكن بحسب لفيناس الآخر ليس آخر بالنسبة لي كما هو المعنى أين يكون الأخضر آخرا للأحمر في نفس نوع اللون وهو ليس آخر في حضن الذات ، لكنه آخر بذاته. فعالم وجوده لا يقاس ولا يقدر.

فالآخر المطلق هو الغير لأن الرؤية التي يتأسس عليها وجه الغير الذي يوحي لنا أنه سر يتعذر اختزاله إلى نظام الأشياء. فهو سر لا نستطيع أن نفشيه، هذا يوضح لماذا هو هادئ في معاناته، هذا الذي يشرح عدم السماح بقتل الغير لأن القتل يكون ممكنا إذا لم نكن قد رأينا الغير وجها لوجه، فعدم إمكانية القتل هذه ليست واقعية بل هي أخلاقية، فأثر رؤية الوجه ليس تجربة وإحساسا لكنه خروج من الذات أو هو اتصال بكائن آخر. « **فهذا الأثر مثبت ومقرر في الميزة الخالصة الأخلاقية لهذه الإمكانية. فالنظر الأخلاقي يقاس في الوجه**» (levinas, 1972)

هكذا تولد الأخلاق التي هي بحسب لفيناس ليست الأخلاق التي تخضع للحرية، لأنه لا يمكن استبدالها بالإرادة في الواقع ، لأنني إذا استطعت اختيار علاقتي مع الغير، فبعد اختياري ستتشكل واحدة من صيغ (طريقة) التملك ، وسيكون اختياري أحد أشكال السلطة على هذا الغير، على العكس فرؤية وجه الغير هو نداء و توسل ينهي الحرية ليوقظ المسؤولية التي لا نملك فيها الاختيار، « **ولا آخذ مسؤولية بصدده (مراعاته)، سأجد نفسي ملتزما به، أحمله فهو المختار،وأنا الرهينة. إن المسؤولية تفرغني من تسلطي وأمبرياليتي. من أنانيتي، هي تؤكد في الوقت عينه ، "وحدانية الأنا" هو حدث، بحيث لا أحد يستطيع أن يجيب عنه بالنيابة عني**»(chalier, 1993) إلى درجة أنه يعرض أمامي فقره ويتوسل مسؤوليتي ؛ الغير أمرني بألا أختبئ لا يمكن أن أكتفي برؤية الغير بتفحص عميق، فهو يظهر كالذي يجب تحيته أن تجيب الغير هو أنك تجيبه هو.مع ذلك فالغير موجود كآخر ، هذا يعني أنه متعال حتما ، يظهر في العلاقة الأخلاقية التي تخترق محدودية و انغلاق الأنا ، فالوجه هنا يسائل هويتي أنا لست في وضع انحناء و رضوخ، أنا محرج من نفسي، انا منادى (مستدعى)، أنا مأمور بالتصرف، الغير هو قدرة خالصة لانفتاحي على الغيرية.

يمكن أن نلاحظ أن لفيناس يعتني جيدا في كتابه " **الكلية واللانهائي**" بوضع كلمة "موضوع" و"ذات" بين قوسين ، فإذا كتب "موضوع" فإنه يود احترام الاصطلاح الفينومينولوجي والذي يعني أن كل أفعال الوعي التي أساسها الذات يتجه نحو موضوع، لكن الغير بالنسبة للفيناس ليس موضوع، فهو نفسه نهائية القصدية الذاتية.

مما تقدم عرضه يمكن الإقرار بأن لفيناس لم يتأثر فقط بـ فينومينولوجيا هوسرل ؛بل يمكن اعتبارها المنبع الحقيقي لفلسفته ،لكن انبثاق فلسفته الخاصة وليد التحليل العميق لمعنى العلاقة مع الإنسان الآخر ،ففي نظره إن مهمة الفلسفة ليست في صياغة نظرية

للمعرفة أو نظرية في السياسة و لكن في فهم معنى العلاقة مع الآخر ،كحقيقة مؤسسة لكل العلاقات الأخرى للكائن ،بحيث نصبح قادرين على احترام غيرية الآخر وليس بمحاولة اغراقه في هوية الأنا .

كما يمكن لنا أن نقول أن لفيناس بالفينومينولوجيا قد طعم فلسفته الإيتيقية ، على اعتبار من أن الفينومينوجيا تتعامل مع التجربة الإيتيقية بطابع المنهجية المستمدة من المنهج الفينومينولوجي ،لأن الفينومينولوجي لا يبدأ من الإطار النظري أو فروض مسبقة يسحبها إلى الخبرة الأخلاقية ؛إنما ينطلق من قوالب منهجية فارغة .حيث أن الفينومينولوجيا ليست منهجا مغلقا محاط بأسس وقواعد البحث؛ بل هي منهج مفتوح على امكانات البحث ، إذ أنها لا تقدم لنا حقيقة جاهزة إنما تضعنا على درب الحقيقة .

من هنا يجب تعريف التجربة الإيتيقية من خلال الموضوع الذي تحدث فيه هذه التجربة و الذي نسميه بالموضوع الإيتيقي ، كما يستلزم تعريف الموضوع الإيتيقي من خلال التجربة الإيتيقية وكذا التجربة الإيتيقية بواسطة الموضوع الإيتيقي .

2. اكتشاف الموجود ضد أنطولوجيا هيدغر:

1.2. الأنطولوجيا ليست فلسفة أولى:

لطالما كانت الفلسفة مهتمة بسؤال الوجود ، بالأنطولوجيا ، وقد وصل الأمر إلى اعتباره سؤال الفلسفة الأول ، السؤال الذي تتبعه كل الأسئلة الأخرى، رغم ذلك واجه **لفيناس** في كتاباته الأولى سؤال الوجود بطريقة مختلفة إذ اعتبر منذ الوهلة الأولى أن تجربة الوجود تجربة صعبة و مرعبة، فهي تعبير عن الصراع – و حتى عن الحرب – حيث وصل به الأمر إلى حد القول إن هذه التجربة توصف بالدرامية، إن الوجود بما هو عملي كان أحد مواضيع الفلسفة الحقة وتعبير عن أصل الفلسفة اليونانية .

لهذا فقد استحوذت مشكلة الوجود على انتباه لفيناس منذ البدايات لكنه يراها و بهذا التعبير العام لمعنى الوجود هي بداية للفلسفة، لأن الوجود نفسه ظهر كمفهوم مجرد كمفهوم دون محتوى بحيث لا يقال عنه أي شيء، على الرغم من كونه التجريد الأهم أو على العكس البساطة الأهم و هذا الذي استحوذ على انتباهه، في هذه البساطة وجد كل المشكلات والتي تظهر في مفهوم الوجود ، وهذا تحفيز للتأمل والبحث عن محتويات هذه المشكلة والأشياء التي تضاف لها كاللامحتوى ، وفي ظل هذا التحفيز نال **لفيناس** إجابته الأولى من خلال **هيدغر** الذي أصر على المحتويات الأولى لفكرة فراغ الوجود من خلال قوله بأن الأمر يبدأ بالموجود ومن ثم إلى الوجود، وعلى هذا نقد الوجود لفكرة جوهرية لكنه لطالما فهمه على أنه الفعل الذي يشير إلى صيرورة و حدث ، لهذا يقول هيدغر: "إنه هناك في هذا الحدث في هذه الصيرورة في الصيرورة نفسها كما لو أنه هنا أصبح للوجود معنى." تصور معنى الوجود بهذه الطريقة في التجريدية يؤكد وجود هذه الصيرورة ، في هذا الإصرار على الهدف الأولي الذي تحمله من خلال الوجود والذي يتكون من الوجود أكد لـ لفيناس اللقاء بالفلسفات الأخرى و خاصة الفلسفة الاسبينوزية و التي تصف الوجود دائما باعتباره الجهد للوجود بالرغم من

ان هذا الجهد يسعى للوصول إلى شيء ما ؛إلا أن هدفه هو هذا الجهد بذاته.

يرى **سبينوزا** أن الوجود أكثر (أو الزيادة في الوجود) مصدر للبهجة، وعلى العكس فإن تقليل الوجود يخلق الحزن الذي يكون مصدرا للمشاعر العنيفة، من هنا يطرح لفيناس النقيض حيث يكون الشر متأصلا في الوجود كما يعكس صلتنا الأساسية به، وأن نظرتنا للوجود تنتج عن الشر الذي لن يكون تجربة يستشعرها الإنسان فالحزن مرتبط بالانشغال بالذات وهو نتيجة معاصرة متولدة عن تعقيدات الوجود بما فيها من الصعوبات في البناء والطموحات والآمال وحتى الحروب، وفي هذا نظرة متشائمة للوجود خاصة إذا تعلق هذا الانشغال بالذات واجتمع مع الوعود التاريخية للدين و التي تريد التقليل من قيمة الوجود على هذه الأرض (الوجود العيني) في شروطها الثلاث (الحياة، المادة، والطموح الشخصي) وبهذا المعنى يشرح لفيناس من خلال التاريخ وعبر النظر إلى الحضارة الإحساس بخبث الوجود الذي هو حزن الانشغال بالذات.

لفيناس يصور بتأملاته في فقدان الانشغال بالذات لأن فكرة الإنسانية هي النقطة الوحيدة في عالم الموجودات، حيث يكون من الممكن أن يطلق على أحدهم (غير منشغل) وهذا ليس تعبيرا عن فراغ وإنما أن أفضل على وجودي صلتي أو الإمكانية الأكبر بوجود الأشخاص الآخرين الذين يجب عليهم أن يحيوا وأن يعرفوا صعوبة عدم الانشغال هذه: هكذا يكون عدم الانشغال من منظور آخر ومختلف تماما، منظور معلوم عن الإنسان الأوربي والذي يطلق عليه القداسة. رغم أن التاريخ جاهل لقيمة القداسة فالتاريخ يطالب الناس بالتضحية بأنفسهم ليخدموا الأهداف التي تؤدي إلى مزيد من السعادة ومزيد من الحرية فعلى سبيل المثال قول هيجل "أن على الناس العظماء ان يضحوا بكثير من الأزهار البريئة في طريقهم" فهذا يعبر بأنه لا توجد مسؤولية أخلاقية من جانبه فالتاريخ هنا خارج عما هو أخلاقي.

إن هذا الإدراك الحديث يعبر عن خيبات الأمل الأوروبية الكبرى خلال قرون سابقة ، وهنا الحقيقة التاريخية ليست قادرة على الوصول لنفس التأثيرات هناك. إن فكر هيجل حسب لفيناس تحرير لما يتعلق بالحقيقة حين بدت التكنولوجيا متجهة مسبقا لتملك الإنسان والموضع الذي ميز فيه هيجل تمظهرات العقل والتي أتت على العكس من ذلك بتحرير الإنسان المضطهد من خلال التاريخ في المقابل فإن هذه القيمة في القداسة "أي تضحية إنسان لأجل إنسان آخر" يعبر ضمن صور دينية لكل الفترات التي تلت الإنجيل ونتيجة لذلك فهي تحمل معنى عقلانية التاريخ.

« شكل كتاب (الوجود والزمان) ثمرة وأزهارا للفينومينولوجيا الهوسرلية، فقيمة المخزون الرائع للمنهجية الفينومينولوجية ثم إبرازها من طرف هيدغر في أعماله الأولى وخصوصا في تحليلاته الفينومينولوجية للقلق كنمط أساس لوجودنا» (كيرني، 2003).

بهذه العبارات التي تبعث على الإطمئنان يصف لفيناس هيدغر ومحاولاته التي لم تجدد المنهج الفينومينولوجي الهوسرلي فحسب بل جددت أيضا مضامين الفلسفة حيث اقترح هيدغر لنفسه أفقا لممارسة فعل

التفلسف داخل نصوص الفلاسفة ذاتها، وأهم ما يميز الدرس الفينومينولوجي هو العودة إلى الأشياء ذاتها، وليحصل هذا دعته الحاجة إلى العودة إلى المبحث السادس من "الأبحاث المنطقية" بما فيه من تمييز للعيان الحسي عن العيان المقولاتي قصد انتشال الفكر (الوعي) من عتمة الميتافيزيقا وعبر العودة إلى منابع الفلسفة بإعادة قراءة المفاهيم و تنقيتها من الاغتراب الميتافيزيقي، لهذا تعين على هيدغر إعادة فهم سؤال الوجود وتفسير الزمان على أنه الأفق الممكن لكل فهم للوجود في شموليته، إن هذه الإستعادة الأساسية تمثل محاولة استعادة المفاهيم الأصلية والتي تجعل من مفهوم الفكر أعلى قيمة مؤشرة على الوجود ، هذا ما يقتضي منهجا يتأسس في ازدواجية: تقوم الأولى على التحليل الأنطولوجي للدزاين (Das ein) والذي يقصد به تحليل أساليب وجود ذلك الكائن (الدزاين) الذي يتميز عن غيره بقدرته على طرح السؤال عن وجوده وأيضا تميزه عن غيره محددا لهذا الوجود، فهدف هذا التحليل الأنطولوجي كذلك هو تبيان الأسس الأنطولوجية كمقومات لهذا الدزاين. وهذا بفضل دراسة فينومينولوجية لأنماط الوجود (القلق، الكلام، الموت...)

ومن هنا فلا سبيل لاستعادة السؤال عن الوجود إلا بتحليل السائل (الدزاين) الذي يمتاز باهتمامه بالوجود ، ولعل خير منهج لتحصيل هذه الفعالية هو المنهج الفينومينولوجي الذي تظهر الظاهرة فيه نفسها بنفسها لتتبدى أمام الوعي المانح الأصلي ، أي وصف ما هو معطى للوعي مباشرة ، وهنا يقول هوسرل: « **إن الفينومينولوجيا وصف خالص لمجال محايد هو مجال الواقع المعاش والماهيات التي تتمثل في هذا المجال**». (ابراهيم، 1938) ومنه سيقيم هيدغر الفينومينولوجيا على علم التأويل.

أما الثانية فهي تقوم على استشراف البواطن الأنطولوجية ، والتي فيها عودة إلى مصادرها الأصلية التي استمدت منها المفاهيم والمعاني التي ظل الفلاسفة يتوارثونها ويجرونها بعيدا عن أصولها ، لذلك أراد هيدغر وضع هذه المفاهيم في سياقاتها التاريخية بدل أخذها كحقائق أزلية تفرز تصورات ميتافيزيقية عن الوجود.

إن هيدغر ومنذ الوهلة الأولى أراد أن يمنح للمعرفة التي فتحها هوسرل أساسا عينيا للوجود اليومي إمكانات التحليل الفينومينولوجي ومحاولا في الوقت نفسه تجاوز الفينومينولوجيا الترانسندنتالية التي ترد كل شيء إلى الوعي الخالص، لذلك فإن هيدغر يتبرم ويتنصل للفينومينولوجيا حين يجردها من طابعها المطلق من الزمان. وبهذا فهو يجعل الفينومينولوجيا أنطولوجيا تتجه إلى ما يظهر الظاهر نفسه معتمدا في ذلك على الإجتثاث الفينومينولوجي للأنطولوجيا، ولا يفهم هنا الاجتثاث كسابقه من الإختزال أو الرد (Epocke) و إنما هو التأويل ، ليصير الفينومينولوجيا هيرمينوطيقا تبني بنية و خصائص الدزاين و في هذا يقول: « **إن الفلسفة هي أنطولوجيا فينومينولوجية كلية ،تبدأ انطلاقاتها من تأويل الدزاين الذي تبث - بوصفه تحليلا لهذا الدزاين – نهاية مسار كل سؤال فلسفي عند الأصل الذي صدر عنه ولسوف يرتد إليه**» ,heidegger) (1964.

إن الاجتثاث الفينومينولوجي بما يحمله من تفكيك للتراث الفلسفي ينزع القناع عن الأنطولوجيا في مفاهيمها وتاريخيتها التي أساءت الفهم وكانت خطيئتها نسيان الوجود ، إن استعادة السؤال عن الوجود يقتضي مهمتين تفترض أولاها بمجاوزة تاريخ الأنطولوجيا كميتافيزيقا بسؤال: ما الميتافيزيقا ؟ هذا السؤال الذي يروم به هيدغر تفكيك الأسس التي قامت عليها الميتافيزيقا وليس إعادة تكرار الفلسفات اليائسة التي ارتمت في المطلق الميتافيزيقي أين تم نسيان الوجود ، وهنا يقول هيدغر: « **التفكير في المجاوزة في علاقتها بتاريخ الوجود، وهي علامة تؤشر بإعلان ابتداء فهم نسيان الوجود**» (الداوي، 1992).

فـ هيدغر يعطي لكلمة الميتافيزيقا معنى عاما وعائما يتجاوز كل التحديدات المتعارف عليها في تاريخ الفلسفة ، إذ يعتبرها مجموعة متنافرة من المذاهب الفلسفية والتيارات السياسية ؛فالحركات العلمية التي يمتد ظهورها من آناكسيمندر حتى نيتشه كلها تشترك في خطيئة نسيان الوجود وقد تبلورت في ما يدعوه بميتافيزيقا الذاتية التي نست أصلها وانصرفت إلى الاهتمام بالموجود حتى أن هذه الميتافيزيقا قد خلطت بين الوجود والموجود، ففي فكرة القطيعة لهذه الميتافيزيقا يتشكل الاختلاف الأنطولوجي بين الوجود و الموجود ليسأل عن الوجود ، لا من جهة وجود الموجود بل من جهة أن الوجود بما هو كذلك يمثل هما لدى الإنسان المتسائل بلا انقطاع ، بهذا فإن هيدغر يرفض ثنائية الذات و الموضوع التي سادت في الفكر الحديث سواء عند ديكارت الذي جعل الذات تحتل مركز الكون و تتحصن بوهم اليقين وهذا ناتج عن اعتبار الوجود كيان موضوعي ينفصل عن الذات ، كما أنه يرفض ثنائية الذات و الموضوع ليقر بأن الإثنين معا (في معية) حيث تصبح الذات كامنة و حالة في الموضوع الذي يطوقها.

إذا كان الهدف من وراء كل هذا الزخم الهيدغري وكل هذه التعقيدات اللفظية لأجل إقامة أولية تمنحها الأنطولوجيا للذات التي يعتبرها لفيناس علم الدلالة التي لا تعمل إلا من خلال السياقات أي مدلولات يرتبط بعضها ببعض دون إمكان كسر سلسلة هذا الترابط ، فإن لفيناس يطرح الأخلاق كفلسفة أولى والتي تشير إلى مستوى ميتافيزيقي لا يمكن للأنطولوجيا بلوغه هذا المستوى المتمثل في الآخر ، هذه الأولية هنا تمنحها إيتيقا الغيرية المعارضة للأولية التي تمنحها الأنطولوجيا للذات ، فـ «**الأخلاق ليست فرعا من الفلسفة و إنما هي الفلسفة الأولى**»(levinas, 1971) .

الملاحظ أن هيدغر قد كون سؤاله حول الوجود بتكريس الاختلاف بين الوجود و الموجود في مشروعه (الأنطولوجيا الأساسية) لذلك فإن لفيناس يستبدل هذا السؤال بسؤال الإنسان فكان أن وجه فلسفته كلها من الوجود إلى الموجود بالشكل الذي قلب البناء الهيدغري كله رأسا على عقب ، ولقدتم هذا حين أدرك لفيناس الاختلاف الذي يقيمه هيدغر بين الكائن والكينونة ،وهو اختلاف يقوم بين فعل (الكينونة) واسم (الكائن)، ففكر الكينونة هو فكر فعل الكون ولا يحمل الكلية التي نسبها إليه هيدغر، لذلك فإن لفيناس لا يرى نتيجة غير هذه (للكينونة والزمان)، وفي هذا يقول: « **نتكلم عادة عن الكلمة كينونة كما لو أنها اسم، إلا**

أنها فعل بامتياز، في الفرنسية يمكننا القول الكينونة L'être أو كائن Un être ، مع هيدغر، انبثق من جديد أصل الكلمة كفعل لفعلية الكينونة، فيكفي مغادرة هذه اللغة لمغادرة مشكلة الكينونة بأسرها»(levinas, 1992) .

تعتبر "**الأخلاق كفلسفة أولى** "عنوانا بارزا في فلسفة إيمانويل لفيناس فهي "تعني الأخلاق كميتافيزيقيا "، هذا يعني أنها المبحث المعرفي في العلل الأولى التي تفسر معنى الكينونة ، لهذا نجده يصفها بأنها وحدها القادرة على تبيان الدلالة الأولى التي أعطت الكينونة الإنسانية معناها، فالأخلاق كفلسفة أولى تنفذ إلى فهم الحدث الأول الذي أسس لسؤال معنى الكينونة الذي كان جوهر كتابه "الكينونة والزمان" . لذلك فهي تسبق الأنطولوجيا (علم الوجود)، لأنها تفشي (الأخلاق) إلى حدث أكثر أصلية منها (الأنطولوجيا)، لذا فهي الحدث القبلي الذي أسس لسؤال الحقيقة ومعنى الكينونة.

وعلى هذا يتشكل التعارض بين أولية الأخلاق و أصلية الأنطولوجيا . فالأخلاق بهذا المفهوم تشير إلى مستوى ميتافيزيقي لا يمكن للأنطولوجيا أن تصل إليه و هو الغيرية ، و على هذا فأولية الأخلاق تقوم أساسا على أولية الآخر وذلك ما يتعارض مع الأولية التي تقدمها الأنطولوجيا للذات ، فالأسبقية المعبر عنها بالأولية هي أولية ميتافيزيقية لأنها قادرة على تعقب آخر الدلالة من دون سياق الكينونة الإنسانية وهذا يتناقض مع القول الأنطولوجي بما هو علم دلالة يعمل من خلال السياقات أو المدلولات.

يقول لفيناس: « **إذا ما كانت تأملاتنا في البداية تستلهم في جانب كبير منها فلسفة هيدغر خصوصا، بالنسبة لمفاهيم الأنطولوجيا وعلاقة الإنسان بالوجود، فإنها كانت خاضعة لرغبة عميقة في ترك أجواء هذه الفلسفة، ولقناعة لدينا بأنه لا يمكن الخروج منها باتجاه فلسفة يمكن أن ننعتها بما قبل الهيدغرية**»(levinas, 1974) .

ويذهب لفيناس إلى اعتبار الزمان محددا لعلاقة الذات مع الآخر ،ف« **الزمان ليس أفق أنطولوجي لكينونة الكائن،و إنما ككيفية لما وراء الكينونة وكعلاقة ال"فكر"بالآخر وكعلاقة بالآخر "الكلي"**» (لفيناس، 2014، صفحة 26) وفي طرحه هذا إنما سيتجاوز الطرح السوسيولوجي الذي لطالما عبر الزمان فيه عن حدث ذات معزولة ، فهذا القول يتعلق بالزمان ذاته وليس كأفكار يتم اكتسابها من المجتمع ،و قصد تحقيق هذا القول يلجأ لفيناس إلى تحليلات أنطولوجية تسعى إلى التأكيد على أن الكينونة ليست فكرة فارغة وهذا بالإقرار أن لها جدليتها التي تظهر في لحظة تجادل العزلة و الإجتماع وهذا ليس مطلبا سيكولوجيا يعبر عن الحاجة في الشعور الداخلي – إن هذا سيقود لفيناس إلى تقديم العزلة كمقولة للكينونة ، يخالف بها تصور هيدغر إذ يضع العزلة في خضم علاقة سابقة مع الآخر ، فطرح هيدغر لهذه العلاقة في تحليلات الكينونة والزمان يدور حول لا شخصانية الدزاين المتوحد، و عليه يقول لفيناس: « **فتحليلات الكينونة والزمان كلها تتمحور حول لاشخصانية الحياة اليومية ، أو حول الدزاين المتوحد ، هذا من ناحية ومن**

ناحية أخرى ، أتأخذ العزلة طابعها التراجيدي من العدم ، أم من فقدان الآخر الذي ينبئ به الموت ؟» (لفيناس، 2014، صفحة 36)

بهذا فإن لفيناس يتجاوز التعريف السوسيولوجي للعزلة :هذا التعريف الذي يظهر الآخر عند هيدغر في شكل علاقة معية (كينونة الأنا مع الآخر) (Miteinandersein) إن اختزال هيدغر لهذه العلاقة والتعبير عنها – كما يقول لفيناس – بحرف الجر (في اللغة الألمانية Mit) هو الذي يصف علاقة الترابط جنبا إلى جنب (التي تعبر عن اشتراك يربط الجانبين) هو ليس بالوصف الأصيل للعلاقة مع الآخر لأنها ليست علاقة وجه لوجه. إن هيدغر في إقراره لهذه العلاقة (علاقة المعية) إنما يسعى إلى تطوير علاقة بيذاتية يومية ليست مستقلة عن العالم بأدواته التي تكشف عن وجود الآخرين، وهنا يأتي فهمه للفلسفة بانها هيرمونيطيقا لليومي، كما هو بناء للأنطولوجية الأساسية كتدمير لفلسفات الذات، إلا أن لفيناس يرى في هذا تأسيسا لأولوية الوجود على الموجود وفي هذه المعية منطقا للشبيه (أي الآخر الذي يشبهني)، كما أن في هذه الأنطولوجيا أولوية علاقة الوجود مع الموجود بل يصير فهم الوجود هو شرط فهم الموجود لذلك -حسب لفيناس- لا يمكن الحديث عن الغيرية في ظل وجود لا يتكلم ،أما فكرة المعية فهي وإن كانت فكرة بيذاتية إلا أنها بين ذوات لا تسمح بتحقق المختلف المطلق، إن المعية هنا تتأسس على الأنالوجيا أو المماثلة في كلمة أخواتية أو معية، إنها علاقة لا تهدف إلى المعية كمتماهي مع الجماعة بل لا بد من الحفاظ على الانفصال بين الأنا و الآخر كشرط للاختلاف و هنا يؤسس لفيناس إحتفاءه بالإنفصال والإختلاف والوجه لذاتية تتحقق كمسؤولية اتجاه الآخرين ليطرح بيذاتية تتأسس كأخلاق و لا تهدف إلى ابتلاع الآخر و تحويله إلى شبيه ،أي أنها بيذاتية تفتح أبواب الميتافيزيقا للانهائي الذي يناقض الحرية المكتفية بذاتها التي تنظر إلى الآخر كتهديد لوجودها ، و التي تتناغم في ترابط لا يمكن فكه كالسلسلة.

منه فالأخلاق كميتافيزيقيا لا تقبل معنى الأخلاق القطعية ، وهذا ما تعبر عنه كلمة الإيتيقا (Ethique) في مقابل الأخلاق القطعية (Morale) التي تبحث عن سن القوانين ، لذا فالأخلاق اللفيناسية تفتح الهوامش للوجود الإنساني وما يحتويه من استثناءات وتمايزات وهذا الفتح يتم بلقاء الآخر وجها لوجه ، علما أنه لقاء غرائبي ناتج عن غرائبية الآخر في حد ذاته ، هذا الآخر الذي لا يمكن احتواؤه ، ولا اختزاله إلى الأنا.

إن الأخلاق كميتافيزيقيا عند لفيناس تعيدنا إلى الحقيقة الأولى للكينونة وهي الحقيقة الإنسانية التي تسبق أي تموضع لهذا الكائن .و لعل هذه الأولية للأخلاق أو "الأخلاق كفلسفة أولى" نتلمسها في مؤلفه "الزمان و الآخر" الذي نعتبره نفي للأولية الممنوحة للأنطولوجيا من قبل هيدغر.

يبدو أن المهمة التي حشد لها لفيناس نتاجه الفلسفي تتمثل في مراجع طرحنا لمفهوم الهوية . الهوية طرحا تاريخيا وهذا يتجاوز فهمنا لذواتنا ، و هذا الطرح التاريخي هو قطع لكل مفهوم مفارق و ميتافيزيقي للهوية أو ما يجعلها ثابتة ،فلا وجود لهوية

عمياء لا تبصر الآخر من حيث هو أبدي ، فالآخر كاكتشاف هو بمثابة حقل من الإمكانات الخصبة و مصدر خيرات لا نهائية ، بهذا الاكتشاف تتحرر الأنا من "أنا نهائية" ليكون الآخر هنا مصدر تحقق جديد لهذه الأنا عبر دور الوسيط للخروج من مركزيتها ، كما أنه سيكون مجالا ليكشف للأنا نقصها و سبيل لامتلائها في آن واحد ،لذلك فإن الآخر هنا سيغدو مشروع الأنا نفسها في عالم الوجود والتحقق.

من هذا المنطلق يعارض لفيناس الأولوية المعطاة للأنطولوجيا التي تنظر إلى الوجود على أنه استمرارية في الكيان (الكينونة) هذا يعني أن تكون هو لأن تكون ،وفي هذا اكتفاء بالتفكير في الوجود الذي يصبح أنانية و انطواء على الذات ،وهنا مكمن الشر الذي يتشكل في محاولة تأكيد الذات لذاتيتها وسعيها في بحث سبل السيطرة ،لهذا يقول لفيناس: **«في كل ما أجد ساعيا إليه هناك شيء من الانتقاص في مفهوم الكائن الذي في إصراره بأن يكون يخبئ عنفا وشرا وأنانية** » (poirie, 1992)

فالوجود بمفهوم أن يستمر الكائن في الوجود يفعل حرية لا تأبه فيها الذات للوجود ولا للموجود، فالاستمرار في الوجود هو رضا الذات ومقاومة للآخر، فغيريته قد تظهره كعدو، ومنه فإن هذا المفهوم تعبير عن فلسفة القوة بامتياز، حسب لفيناس **« أن تكون أو لا تكون ليس هو على الأرجح السؤال الجيد»**.(poirie, 1992, p. 140)

فبالإعتراف بالآخر يبدأ الوجود الحقيقي للإنسان وفي هذا قطع لوحدة الكائن وقضاء على أنانيته، وحريته، فباللقاء (لقاء الآخر) تتزعزع طمأنينة الذات وتوضع حريتها موضع تساؤل، ولأن الكائن ليس علة وجوده.

في هذا يؤكد لفيناس قائلا: **« لأن الكائن ليس أبدا علة وجوده ، وذلك على عكس ما يقوله العديد من التراثات التي تبغي التطمين»** (levinas, 1992, p. 121) هكذا فلفيناس يجري إنقلابا على الأنطولوجيا التي ما انفكت تدافع عن الأنا ليستبدلها بالآخر الذي تدافع عنه الأخلاق.

إن هيدغر في تحليله للموت يقصد تحفيز ماهية الدزاين و معاودة سؤال الكينونة "ماذا أن تكون" فالموت هنا أنطولوجية بامتياز إضافة إلى أنها تعريف دقيق لأنانة الدزاين : لأنه لا شخص آخر قادر على الموت مكاني ،وحدي أنا سأموت ميتتي ، لكن بحسب لفيناس ، الموت لا يحتل مكانة أنطولوجية بل أخلاقية و معنى هذا أنها ليست حكرا على شخصيتي بل : **«إنه عصي على الحميمية بين الأنا و الذات التي تعود إليها تجاربنا كلها(...)يعني مجهول الموت أن العلاقة ذاتها مع الموت لا يمكن أن تتشكل في النور ،و أن الذات ،معه ،في علاقة مع ما لا يأتيها من ذاتها .يمكننا القول إنها في علاقة مع لغز»** (لفيناس، 2014، صفحة 75) .

كما يذهب لفيناس إلى أن الدزاين لا يستطيع بالموت أن يفهم قدرة الكينونة المطلقة ، ليقر بالمسؤولية الخاصة من نفسه ، أو في معنى موته الخاص ،فبحسب تحليلات هيدغر المتعلقة بـ "الكينونة من أجل الموت في الوجود الأصلي " هي التي ستمكن هذا الدزاين المضطلع بالإمكان الأخير

للوجود من الإمساك بممكنات أخرى للوجود ؛غير أن لفيناس يرى أن الموت يبعد الفحولة عن الدزاين في هذه الكينونة ، **«لأن الموت يعلن عن حدث لا تكون فيه الذات سيدة عليه ،حدث تكف الذات عن كونها ذاتا بالنسبة إليه»** (لفيناس، 2014، صفحة 76) ،لذا فالموت دائما خروج من الكلية ، لأنها خارج الكينونة (الكائن) و العدم ،فهي تحطيم للوحدانية و إنفتاح على الآخر لأن الموت لا ينهض من الأنانة و العدم بل يأتي من الآخر.

فالموت عند لفيناس لا يعود إلى الكائن و لا إلى العدم فهو غريب ، مجهول معنى هذا " أنه خلاف لما هو حاضر ولما هو آني"،فـ **«الموت ليس حاضرا على الإطلاق (...)الموت كآت على الدوام (...)و إلى أنه يسم نهاية فحولة و شجاعة الذات .إن الآن حدث ، حدث ينتج عن كوني - أنا – سيد الممكن ،وسيدا يمسك بالممكن .لكن الموت ليس الآن البتة ،عندما يكون الموت هنا ،أكف أنا عن كوني هنا ،لا لأنني أصبح عدما بل لأنني لم أعد قادرا على الإمساك به .تمكني و رجولتي و بطولتي كذات ما عادت كذلك أمام الموت»** (لفيناس، 2014، صفحة 78).

القول بأن الموت ليس أنانية بل من الآخر ، هذا يفضي إلى أنه آت من الجهة نفسها مع الآخر، إذ هو خارجانية و تعالي جذري ، و لفهم أفضل للموت و التعالي الجذري للآخر معناه أن الآخر غير مختزل إطلاقا ، لأنه غيرية محضة على عكس الأنا أو كما يسميه لفيناس "المثل " أو"المشابه" و الذي يلح في احتواء كل ما هو خارج ، هذا هو قانون الكلية ، أو الكائن الذي يحرك المشابه ، ففي نظر لفيناس نجد أن فكرة الكلية تحتل مجموع الفلسفة الغربية من سقراط إلى هيدغر، هذا يعود بنا إلى القول بأن الأخلاق هدفها في سؤال المتشابه بالخارجانية الجذرية للآخر، لكن كيف انفلتت من سقراط هذه العلاقة؟ ألم يصنف معلما للفلسفة العملية؟ ليس بالنسبة للفيناس الذي يحسب القاعدة الذاتية "لسقراط" "إعرف نفسك بنفسك" كناية للأنا على الآخر، هذه الأولوية للأنا حسب لفيناس تكون درس سقراط، "لا تقبل شيء من الآخر" هذا النقد الموجه لسقراط هو موجه أيضا لتلميذه أفلاطون الذي جعل من المعرفة تذكر أو أن تعرف معناه أن تتذكر ما هو معروف من حياة أخرى داخلية بتعبير آخر من عالم الأفكار (المثل)، ومنه فالمعرفة حركية كبيرة في الأنا.

4. خاتمة:

لم يتردد **إيمانويل لفيناس** أثناء نقده للميتافيزيقا الغربية أو الفينومينولوجيا من أن يتخذ خطوة عبر اقتراح أساس لانهائي من نوع تأملي و من هذا الأساس اللانهائي يفهم أنه لا يتطلب أساسا آخرا . و من الواضح أنه يقيم في فكره عقيدة للآخر ذات طابع ميتافيزيقي في حدود إيتيقا الغيرية وفي هذا يستبدل التأمل الأخلاقي القائم على استنباطات للقواعد الأخلاقية بحيث عمد إلى توضيح فكرة الأساس اللانهائي في حدود "ما وراء الكينونة ".و هذا ما يقتضي بكل تأكيد البرهنة على أن النقطة القصوى التي يمكن بلوغها بالتأمل يمكن أن نجعلها مسؤولة عن "الآخر" وعن كينونته الخاصة في الوقت نفسه .و ليكون لنا تأمل نافذ

إلى " الآخر" يقتضي الأمر منا مسبقا تأملا عن غيريته و أولويته الأولية.

من خلال كل ما سبق يمكننا وصف إيتيقا **لفيناس** بأنها مسؤولية حملها وكابدها من أجل الإنسان ،و لعل خير ما نبرر به هذا الوصف تلخصه النتائج التالية:

- لقد حاول لفيناس في مشروعه الإيتيقي أن يضع خارطة طريق لما يمكن أن نسميه بـ **إيتيقا ترانسندنتالية** ،يمكن لكل الإنسانية الاسترشاد بها ، وبما تحمله من هيكلة عامة للمسؤولية اتجاه الآخر.
- لطالما عرف الإنسان - في المرحلة المعاصرة - بالكائن الإيتيقي ،لكن بحسب **لفيناس** إن الإنسان لا يبتدع الإيتيقا ؛بل إن الإيتيقا هي التي تحدد كينونته ،خاصة تلك التي تتعلق بحقائقه الوجودية كالموت (المصير المشترك) ، لأن لفيناس يعتقد بأن الإنسان كائن إيتيقي مسؤول انطلاقا من المسؤولية بمختلف تجلياتها المادية والدلالية .
- بلوغ المعنى الحقيقي للإيتيقا كما بلوره لفيناس في حواراته للفكر الغربي من مناهج (فينومينولوجيا ،نقد،تأويل...)، ومن تقويض للميتافيزيقا الغربية وسلطة الوعي ،تتزاوج فيه الفلسفة بتعاليم اليهودية ،الأخلاق بالسياسة و الإيتيقا بمبحث الآخر بما هو ركيزة من أهم الركائز المحورية في مشروعه ككل وبخاصة كتابه "الأخلاق و اللانهائي ".
- هذه الإيتيقا هي غيرية وبما هي نقد للذاتية (المركزية الذاتية) هي قول لـ: نعم للحياة وليس تهديما لها - لما تحمله كلمة النقد (التقويض والهدم) _ لأنها استحضار للغائب المهمش والمقصي ،وعليه فإنها تأسيس لانهائي .
- إن إيتيقا الغيرية سعي حثيث لتأسيس إيتيقا جوهرية ترفض المماثلة كما ترفض ابتلاع الآخر في الأنا .
- هذه الإيتيقا نظر بها لفيناس إلى المسؤولية بما هي مسألة يتحدد بها مشروعه الإيتيقي و بما هي قضية قبلية ،مما يجعل منها تجاوز لمحن الآخر الناتجة عن التداخلات المعاصرة التي جعلت الإنسانية كتلة تنحتها التناقضات وتهجنها التجاذبات .
- إن إيتيقا الغيرية غيرت مفهوم فعل تأسيس الذات لذاتها باستنباط تأسيس الآخر انطلاقا من غيرية هذا الآخر كمؤسس ،مما يعني العود التأملي إلى معنى الوجه كبداهة متحررة من أية إسقاطات عرقية .

إن إقرار لفيناس للطبيعة المرنة والصارمة للفلسفة و إظهاره للإيتيقا على أنها استجابة لنداء الآخر والتوفيق بين تاريخه وتاريخ الإنسان الغربي هو تأكيد على مواصلة الفلسفة أداءها لمهمتها التي تقررت لها في البدء كتفكير في الخير وإسقاط كل النداءات الرامية إلى إزاحة الفلسفة والتخلص منها بدعوى أنها قد استنفذت كل إمكانياتها ،صحيح أن حضارة التقنية قد تمكنت من استمالة الفلسفة و جرها ورائها و لكن هذه الحضارة نفسها ستكتشف أن الطابع التقني ليس هو المقياس الوحيد و لا الطريقة الوحيدة للتفكير.

5. قائمة المراجع:

chalier, c. (1993). levinas.l'utopie l'hummain. paris: albin michel.

heidegger, m. (1964). l'etre et le temps. (r. b. waelhens, Trad.) france: gallimard.

Husserl, E. (1993). Idee de la phenomenologie (éd. 5). (a. lovit, Trad.) paris: e.p.u.f.

levinas, e. (1974). de l'existence à l'existant. revue de la fountaine.

levinas, e. (1967). en decouvrant l'existence avec husserl et heidegger. paris: vrin.

levinas, e. ethique et infini.

levinas, e. (1972). humanisme de l'autre homme. Paris: fata morgana.

levinas, e. (1989). la theorie de l'intuition dans la phenomenologie de husserl (éd. 6). paris: vrin.

levinas, e. (1971). totalite et infini .essai sur l'exteriorite. marinus nijof.

lyotard, j. f. (1982). la phenomenologie. paris: puf.

moati, r. (2011, novembre-decembre). emmanuel levinas l'intentionalite à l'envers. europe-revue literaire , p. 183.

poirie, f. (1992). emmanuel levinas. besançon: la manufacteur.

ابراهيم ,ز .(1938) .دراسات في الفلسفة المعاصرة .(Vol. 1)مكتبة مصر.

إدموند هوسرل. (2007). فكرة الفينومينولوجيا. (المنظمة العربية للترجمة، المحرر، و فتحي إنقزو، المترجمون)

الداوي ,ع .(1992) .موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر .(éd. 1)بيروت :دار الطليعة.

ريتشارد كيرني. (2003). مدخل إلى فلسفة إيمانويل لفيناس. (إدريس كثير.عزالدين الخطابي، المترجمون) منشورات الاختلاف.

علي زيعور. (1980). مذاهب علم النفس (الإصدار 1). دار الأندلس.

لفيناس ,إ .(2014) .الزمان والآخر .(éd. 1) دمشق :معابر للنشر والتوزيع.

.